قصة قصيرة

يوميات أب معاصر

عدنان عبد القادر
- الإمارات العربية المتحدة -

يستيقظ متنمرا ، ينسى أني أبوه فلا يلقي التحية ، يتجه إلى أمه يحدثها كأنها صديقه المكلف بالإصغاء إليه متى شاء الكلام دون أن يسمح لها بالحديث . يظل يثرثر عن شغله وأصدقائه ومنجزاته في عدد الأفلام الهندية التي شاهدها ، يذهل عن نفسه حتى تضغط عليه أحشاؤه وأعضاؤه السفلى.

يقف أمام المرآة بعد معركة شرسة وصلت قعقعتها إلى الشارع ليسرح شعره ، فتسريح الشعر لديه طقس لحظي لا يجوز التواني فيه.يدندن بأغنية شبابية مطلعها : « قررت أخلص منك يا حبيبي » بشريط كاسيت يعوي حتى الصباح » يضحك من كلام الأغنية وينتشي كأنه مؤلفها ، ثم يهدر بصوت خطابي باتجاه غرفتي ، أتحدّاك أن تفسد حياتي أيها العجوز ، فأنا صامد مثل حيطان غرفتي. وغداً تزول مثل قشرة بصل يابسة. التوقيع : ابن زوجتك ، هاملت ». ينفجر في نوبة ضحك ثم يغادر.

يعود ظهراً وقد انتفخ وجهه كحذاء قديم أخذ كامل أبعاده. يهرع إلى طفلتي الصغيرة يحضنها بوحشيّة. يغرقها بالقبلات وأشواك لحيته. تزعق الطفلة فيرميها مثل وسادة في حضن أمه التي يأخذها الذهول ، يقعد محتبياً كأنه أحد الحواة ويحدق في الفراغ الممتد أمامه لساعة ، يسدد إليّ خلسة بين الحين والآخر نظرات نارية وأنا منكبّ على كتابي ظانّاً أني لا أراه ، يطلق زفرات أحس حرها يلفحني ، فلا تندّ مني حركة ، فيطمئن إلى أنني كومة من لحم وعظم لا يصدر عنها أي رد فعل.

يهمّ بالخروج وقبل أن يتوارى يمد رأسه من الباب الموارب ويزمجر بعبارته المعهودة : « أنا ذاهبٌ ، تريد شيئاً..؟ » أتفرس في وجهه ، ونظراتي تقول باستكانة: لا ينقصني شيء والحمد لله.

مثل مناسبات الفرح النادرة لي أن أتحدث إليه أحياناً فأستفتح باسم الله ، وأثني على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ثم أعرج على ذكر الآباء والأجداد وما لاقوه من كبد ليوفّروا للأبناء ماهم فيه من عيش رغيد. يتسلّى عني بقضم تفاحة ، فيخيل إليّ أنه يقضم لحوم الآباء والأجداد نكاية وتشفياً ، ثم يعترض حديثي بصوت أجشّ : "أما تنوي أن تزوجني وتنهي هذه السيرة أدرك أن حكاياتي حققت غاياتها فأصوم عن الكلام معه حتى إشعار آخر.

في البيت أقام مناطق محرمة يحظر على غيره دخولها أو استخدامها حتى لو كان صاحب البيت نفسه ، أنا ، فالشرفة المطلة على بيت الجيران منطقة محرّمة ، وغرفته بفوضاها المنظمة منطقة محرّمة ، والمسجّلة ممنوع استخدامها حتى تتعطّف عليها يداه بما يختار من أشرطة الأغاني

الشبابية و. و. و. ماعدت أذكر ماذا أيضاً ، فأنا في البيت ضيف ، والضيف يجب أن يكون مؤدباً ، ولا يتدخّل فيما لا يعنيه.

قدّمت لنا أمه يوماً كأسين من عصير البرتقال. رحت أحتسي كأسي مثلما أحتسي أيامي ، أما هو فقد كرع مافي الكأس دفعة واحدة محدثاً صوتاً فظيعاً. تشاغلت عنه بالحديث مع أمه عن عادات الشعوب في المأكل والمشرب ، وعمّا جاء في السنّة والآثار من آداب المجالس والشراب ، قال لأمه منتهراً : :أيضاً في الشرب يوجد أدب وقلة أدب؟! ثم انتفض كاللوح ميمماً شطر غرفته.

في يوم من الأيام ألمّ بي وجع رأس شديد حتى صار لي أنين ، واضطجعت كعادتي أنتظر فرج ربي. أحسست وأنا بين الصحو والإغفاء بيده تهزُّ كتفي هزاً أقرب إلى العنف منه إلى الرفق "قم ، اشرب هذا الليمون، لترتاح ، بحثت لك نصف البلد حتى حصّلت نصف كيلو .." شربت الكأس وشفتاي تتمتمان بكلام لا أعرف إن كان شكراً له أو دعاء عليه ،وعلى اليوم الذي رأيته فيه.

قال لي مزهوّاً ذات يوم ومن غير مقدّمات ، وكانت في يده قصاصة ورق : "خذ.. اقرأ" سحبت الورقة من يده وأنا مستغرب من هذا التحوّل المفاجئ الذي طرأ على هواياته فوقع نظري على قول للإمام علي رضي الله عنه : "لاتقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم". قلت منفعلاً : وماذا عن برّ الوالدين ، والجنة تحت أقدام الأمهات ، هذا لاتعرفه ؟! ولا قرأت عنه ؟! عقّب قائلاً : "نعم سمعت عنه ، قالوا: تحت أقدام الأمهات ، ماقالوا تحت أقدام الآباء" لم ينتظر حتى يتلقّى شتائمي بل أسرع إلى الباب في طريقه إلى خارج المنزل.

لا أكتمكم ، بدأت أحس لكلماته طعماً حرّيفاً في الحلق ، وتعودتها كيوميات كاملة الدسم لا ينقصها مثقال ذرة من قلّة الأدب. أمس دخل منتفشاً كديك وقال في لهجة جادة : "عندي مشروع ، قلت في سرّي : كفانا الله شرّ هذا اليوم !!

– أي مشروع يا أفندي؟

– فتح محل "فيديو" .

– محل ماذا ؟!

– فيديو وأشرطة كاسيت .

– وأشرطة كاسيت أيضاً ؟!

– أشرطة أجنبية لمادونا ومايكل جاكسون، أماسمعت بهما ؟

– ولا أريد أن أسمع.

– طيب ماذنبي أنا إذا كنت متخلفاً فنياً؟

أطلق ساقيه للريح قبل أن يلحقه كرسي طار من يدي في الهواء وطار معه المشروع.

من أعدل العقوبات التي يوقعها القدر ، تلك التي تجري في الآباء على يد الأبناء من باب المعاملة بالمثل. ولكن لا أذكر أنني تسببت يوماً في رفع ضغط والدي "رحمه الله " لعلي كنت أضمر ذلك في لاشعوري

كـمـا يحلو "لفرويد" أن
يفترض. مصوراً كل ولد
يحمل في ذهنه مشروع قتل
لوالده. ولكن : هل يحاسب
الإنسان على شعوره ولا
شعوره ؟ لعله حالت عوائق
دون تنفيذي لهذه الرغبة
المحرمة ، إذ كانت لوالدي
– رحمة الله عليه –
هيبة تجعلني
أرتعد كلما كلمته
أو نظرت في
وجهه ، وعلى
اعتبار أننا –
آباء اليوم – ليس
لنا هيبة ، فقد بات
أبناؤنا يعاملوننا
وكأننا أبناؤهم، سبحان الله .. ! لا قيمة لنا
خارج البيت ولا هيبة لنا داخله.

علاقتي الحميمة جداً مع المحروس ابني جعلتني أهتم بالقراءات التربوية ولفتت نظري إلى أشياء كنت أجهلها. عرفت مثلاً أن الأبناء في الغرب لهم شخصياتهم المستقلة ، وأن مسألة احترام الوالدين أو عقوق الوالدين بالمفهوم الشرقي غير مطروحة على بساط البحث. وفسّرت ذلك بثقافتي الشرقية. طبعاً إن الآباء هناك مثلنا ما لهم هيبة فنحن وإياهم سواء. لكن ما أثار اهتمامي أن بلدان الشرق الأقصى بكل سمعتها الحضارية تأخذ بنظام أبوي صارم لا يقتصر على طاعة الأب فحسب ، بل يمتد إلى طاعة الجد الأكبر (العرّاب). وحتى لا يلتبس الأمر على ولدي فيخلط بين العرّاب في الشرق الأقصى والعرّاب (مارلون براندو) فقد تعمدت في جلسة أن أشرح له الفرق مؤملاً أن يشعر بالحياء. وبالطبع جاهدت أن يكون شرحي تربوياً مدعوماً بالحجج والأمثلة لا ينقصه سوى الطباشير والسبورة. ولكن قبل أن أختم محاضرتي قاطعني بسؤاله : كم عمرك يا أباعبدو ؟ دهشت من السؤال لسببين ، الأول : جهله بعمري ، والثاني – وهو الأهم – طريقته في مخاطبتي ، فلأول مرة في حياتي أسمع ابني يناديني : يا أباعبدو ، لكنني بلعت وقاحته الجديدة متصبراً لمتابعة الحديث :

– ولماذا تسأل عن عمري يا أفندي ! أما تعرف أنه خمسون ؟ فأجاب باسماً :

– ما سمعت بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم « أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين » ؟ وهذا يعني في الميلادي بين الخمسين والستين. فغرت فمي فزعاً وكأنني لم أسمع بهذا الحديث قط . قلت : وماذا يعني ذلك يا فهيم ؟

أردف : يعني أحسن من أن تتعب نفسك في النظر وإعادة النظر ، وتقرأ عن التربية في الشرق والتربية في الغرب ، تقضي هذه السنين الخمس التي بقيت من عمرك على رأي المثل : له فم يأكل وماله فم يحكي .

وقبل أن تمتد يدي إلى كرسي قريب لأقذفه به ، سحبه وجلس عليه قائلا : « الكرسي نحن بحاجته ، أما أنت فأحسن لك أن تأخذ رقدة ، وتصبح على خير !! »